الفصل الرابع

مفكرون ومنصفون
مِن الغرب

مما لا ريب فيه ، أن هناك مفكرين منصفين – لا غربيين فحسب بل عالميين أيضاً ، وهؤلاء درسوا الإسلام دراسة عميقة ، فأحبه البعض وناصره ، وآمن به البعض الآخر . وأعلن إسلامه وصدق فيه . .

ولقد كانت الحرب الصليبية سبباً من الأسباب الأولى التى جعلت الكثير من الأوربيين يغيرون وجهة نظرهم فيما يتعلق بالشرق على العموم ، وبالإسلام على الخصوص .

لقد رأى الغربيون صفات الشهامة والنبل والفروسية يتحلى بها أعداؤهم الشرقيون ، ورأوا أن ديانتهم ليست على ما يصوره الاستعمار من الانحطاط والتخريف .

وبدأ الغربيون يدرسون ، فى شىء من التدبر والروية ، هذا الشرق الذى كان لا يثير فى نفوسهم إلا ما رسمه رجال مغرضون من صور تبعث فى النفس النفور . . بل الاشمئزاز .

ثم كانت الرحلات الكثيرة ، والاتصال المستمر ، والصلات المباشرة الوثيقة ، من العوامل الفعالة فى إزالة كثير من الأوهام التى علقت بأذهان الغربيين عن الشرق وعن الإسلام .

ومما لا شك فيه أننا لم نعد نرى كاتباً يحترم نفسه فى الغرب ، يذكر أن محمداً ﷺ ، هو إله المسلمين ومعبودهم كما كان يقول ذلك كتاب سابقون .

ولم يقف الأمر عند حد إزالة الأوهام ، ولكن تيار تفهم الإسلام جرى ،

حتى لقد أخذنا نسمع مدح الإسلام من كبار كتاب أوربا وفلاسفتها .

وهؤلاء الكتاب المفكرون ، ينقسمون إلى فريقين :

فريق أعلن إسلامه ، فى غير لبس ولا مراءاة ، وجابه الرأى العام فى بيئته بعقيدته ، ثم أخذ يدعو إليها مكرساً وقته وجهده لنشرها .

وفريق أحب الإسلام ومدحه . ولا ندرى ماذا أسر فى نفسه !

بيد أن «النورد هدلى» - وسنتحدث عنه فيما بعد - يقول :

«إننى أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال ، والنساء أيضاً ، مسلمون قلباً ، ولكن خوف الانتقاد والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير ، تآمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم» .

والحق أن انتقام الكنيسة وعداءها لمن خرجوا على تقاليدها من الرهبة بحيث يجعل كل إنسان يطيل التفكير قبل إعلان رأيه .

وسواء أكان هؤلاء الكتاب اعتنقوا الإسلام قلباً ، أم أحبوه وأعجبوا بما فيه من تعاليم ، فسنذكر آراءهم أولاً . ونقتصر فى ذلك على أعلامهم ، بل سنضطر ، مجبرين ، على ذكر بعض هؤلاء الأعلام ، ثم نتحدث فيما بعد عن بعض الذين أسلموا وكانت لهم شهرة عالمية .

١ - «الكونت هنرى دى كاسترى» .

لقد درس «الكونت هنرى دى كاسترى» الإسلام دراسة عميقة ، وكتب عنه كتاباً قيماً ، ترجمه المرحوم فتحى زغلول ، ونشر بعنوان :

«الإسلام سوانح وخواطر» .

وقصة تفكيره فى دراسته للإسلام قصة طريفة :

كان من كبار الموظفين بالجزائر ، برغم سنه المبكرة ، وكان يسير ممتطياً صهوة جواده ، ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء ، فخوراً بمركزه ، وكان يملؤه الغرور ، للمدح الذى يزجيه إليه هؤلاء الذين تحت إمرته .

وفجأة وجدهم يقولون له ، فى شىء من الخشونة ، وفى كثير من الاعتداد بالنفس :

« لقد حان موعد صلاة العصر » . .

ودون أن يستأذنوه فى الوقوف ، ترجلوا واصطفوا للصلاة متجهين إلى القبلة ، ودوت فى أرجاء الصحراء كلمة الإسلام الخالدة :

« الله أكبر . . » . .

شعر الكونت فى هذه اللحظة بشىء من المهانة فى نفسه ، وبكثير من الإكبار والإعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به ، ذلك لأنهم اتجهوا إلى الله وحده ، بكل كيانهم ، وبدأ يتساءل :

ما الإسلام ؟ أهو ذلك الدين الذى تصوره الكنيسة فى صورة بشعة تنفر منها النفس ، ولا يطمئن إليها الوجدان . . ؟

وبدأ يدرس الإسلام ، وتغيرت فكرته عنه ، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه ، فكان كتاب : « الإسلام خواطر وسوانح »[1] .

وفى هذا الكتاب الطريف : تحدث عن كثير من جوانب الإسلام سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول ، أم فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية . وقد تحدث –

(١) ونحن نعتمد على هذا الكتاب على الخصوص فى هذا المقال .

فضلاً عن ذلك – عن آراء مواطنيه ، خصوصاً القدماء منهم فى صورة من السخرية ، والتهكم .

«وذهبوا إلى أن محمداً وضع دينه بادعائه الألوهية .

ومن المستغربات قولهم : إن محمداً الذى هو عدو الأصنام ، ومبيد الأوثان : كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب ، كما كان يعتقد : « والكرلوفنجيون » .

بل لقد أغرق خيالهم فى الضلال ، فذهبوا إلى أبعد من ذلك .

وذهبوا إلى أن صورة «ماهوم»[1] كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان» .

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال :

«ولقد أطلنا القول فى تلك الأضاليل ، لأن تاريخ إسكندر [2] المذكور لم يزلها ، ولأنها تركت أثراً فى الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام ، وتشبعت به أفكارهم فى النبى وكتابه» .

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الضالة التى تهزأ بالحق والضمير ، والتى لا يقرها دين أياً كان ؟

«ولو سأل سائل : هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون ؟ لأجبناه جواب أهل «نورمندة» : لا – ونعم ، إذ من المحقق أن الاختلاط بين

---

(١) المقصود محمد ﷺ .

(٢) ألف القسيس «إسكندر دوبون» كتاباً ١٢٥٨ م عن محمد وكان الناس يعدونه تاريخاً صحيحاً للرسول مع أنه ليس كذلك .

المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته ، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم ، بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم » .

هل هذه الروح التى كانت سائدة عند المسيحيين تجاه الإسلام ، اقتصرت على العصور الوسطى ؟ كلا . . .

« فلم يزل هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى أن المستشرق « بريدو » الإنكليزى ألف سنة ١٧٣٣ كتاباً فى سيرة النبى ﷺ عنوانه : « حياة ذى البدع محمد » .

وترجمه بعضهم إلى لغتنا ، وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال :

« . . . إن غرض واضع هذا الكتاب ، هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم » . ثم يعقب الكونت على ذلك بهذه الكلمة الحكيمة :

« أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون ، وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم ، أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً ، وأن يحرفوا فى النقل مهما استطاعوا » .

ثم يأخذ الكونت فى الرد على الافتراءات ، ومن أولى هذه الافتراءات :

أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان يقرأ ويكتب ، فقرأ التوراة وقرأ الإنجيل وأخذ تعاليمه منهما .

وقد رد القرآن على هذه الفرية فقال :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون) . .

ويقول الكونت فى هذا المعنى :

« ما كان يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مراراً – نبياً أمياً – وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ، ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس . لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ، ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره « جارسين دى تارس » فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ ، كذلك من الخطأ مع معرفة أخلاق الشرقيين أن يستدل على معرفة النبى للقراءة والكتابة باختيار « السيدة خديجة » رضى الله عنها ، إياه لمتاجرها فى الشام ، ولم تكن لتعهد إليه أعمالها إن كان جاهلاً غير متعلم ، فإنا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون ، وهم فى الغالب أكثر أمانة وصدقاً » .

« أما فكرة التوحيد : فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبى – ﷺ – من مطالعته التوراة والإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث . وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقته ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوته » .

أما صدق الرسول وسمو رسالته ، فقد أخذ كثير من رجال الكنيسة ومن رجال الاستعمار يشككون فيهما ، وبرغم الوضوح الواضح فى صدق الرسول وفى سمو الرسالة الإسلامية ، فإن رجال الدين المسيحيين ورجال الاستعمار لا يزالون يبدأون ويعيدون فى ترداد التشكيك. إلى هؤلاء وأولئك يقول الكونت :

« والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها . وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب ، فآمن برب قائلها . وفاضت عين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب سورة مريم ، وما جاء فى ولاية يحيى ، وصاح القسيس : إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى !

قال ناقل هذه الرواية ، كوزان دى بير سوفال :

فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفر ، وأشار إليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ، ففعل ، واستغرب الملك لما سمع أن المسيح : عبد الله ورسوله ، وروح منه ، نزل فى أمه مريم ، وأعجب أشد الإعجاب بهذه المعانى وحمى المسلمين ، ولم يسلمهم إلى رسل قريش ، ولم ينفهم من بلاده .

أما هؤلاء الذين بلغ بهم التعسف مداه : فظنوا أن هذه الفترات التى يغيب فيها الرسول عن هذا العالم ليكون بكليته مستغرقاً فى الملأ الأعلى ، إنما هى فترات مرضية ، أو هى الصرع ، وبرغم تكذيب الطب لمزاعمهم مستنداً إلى الاختلاف الكلى بين أعراض الصرع وأعراض الوحى ، فقد أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة . وإليهم يقول الكونت :

« ومن ذلك الحين – أى البعثة – أخذت شفتاه تنطلق بألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض ، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن

مدارك الإنسان ، وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان .

وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعضهم أن به جنة ، وهو رأى باطل ، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين . ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية ، وليس من الناس من عرف الناس جميعاً أحواله فى حياته كلها مثل النبى ﷺ ، فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض فى لحيته ، ولو أنه كان مريضاً لما أخفى مرضه لأن المرض فى مثل تلك الأحوال يعتبر أمراً سماوياً عند الشرقيين .

وليست حالة محمد ﷺ وانفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة ، بل كانت مثل التى قال نبى بنى إسرائيل فى وصفها :

« لقد شعرت بأن قلبى انكسر بين أضلعى ، وارتعشت منى العظام ، فصرت كالنشوان ، لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » .

ونختم الحديث عن آراء الكونت بهذا الوصف الرائع لتلك الساعة الأليمة ، التى فارق فيها الرسول عالمنا الدنيوى ، ليلحق بالرفيق الأعلى ، ولينعم برضوان الله ، إذ يقول :

« ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فإنه لم يرغب طول حياته فى المال ، بل كان كلما جمع إليه شىء منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مالاً يسيراً لتحفظه ، فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته ، وغاب فى سنة ، ولما أفاق سألها إن كانت أنفذت أمره ، فأجابته : كلا ، فأمر بالنقود وأشار إلى الأسر المعوزات ، فوزع عليهم وقال :

«الآن استراح قلبي . فإنى كنت أخشى أن ألاقى ربى وأنا أملك هذا المال . . » .

وكان فى مرضه يخرج كل يوم ليصلى الظهر بالناس . وآخر يوم خرج فيه ، هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ م ، وكانت مشيته مضطربة ، فتوكأ على الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب ، وقصد منبر الخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد ، فقال :

«أيها الذين تسمعون قولى ، إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى فليضربه ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وإن كنت سلبت أحداً ماله فإليه مالى يقتص منه ، وهو فى حل من غضبى ، فإن الغل بعيد عن قلبى» .

ثم نزل من على المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له ، فأداها على الفور قائلاً :

«لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة» .

ثم دعا لمن حارب معه فى أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران .

وكان مشهد النبى بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار ، والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خيبر ، وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك أنه لما كان فى واقعة خيبر قدمت إليه يهودية اسمها زينب شاة مشوية أضافت إليها سماً ، فأخذ منه النبى قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة ، فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين ، كان يقول :

«ما زالت تعاودنى أكلة خيبر» .

وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول :

«هلا افتدينا روحك بأرواحنا ؟

ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولاً . وصار المرض يشتد عليه ، فتخلف عن الصلاة بالمسلمين ، وقيل له : قد جاء وقت الظهر ، فأشار إلى أبى بكر ليصلى بالناس ، فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبى بكر بعد النبى .

وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت : كان رأس رسول الله ﷺ مسنداً على صدرى ، وبقربه قدر ماء ، وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ، ويقول :

«رب أعنى على تحمل سكرات الموت ، ادن منى يا جبريل ، رب اغفر لى واجمع بين أصحابى فى السماء . ثم ثقلت رأسه ومال ثانية إلى صدرى» .

* * *

٢ – كارلايل :

وكارلايل أحد كبار كتاب الإنجليز ، شاعرى النزعة والفطرة ، متحرر من الرياء والخبث ، يتتبع البطولة ، فيكتب عنها ويمتدحها ، ويحبب الناس فى السمو بأنفسهم إلى منازل الأبطال ، أو على الأقل إلى التشبه بهم ، وقد أثار كتابه : «الأبطال» إعجاباً فى ميدان الفكر العالمى ، وترجم إلى كل اللغات الحية ، وحينما ترجمه المرحوم محمد السباعى إلى اللغة العربية ، أثار الكثير من

الإعجاب ، وقد كان لأسلوب الأستاذ السباعى البارع أثر فى انتشار الكتاب ومن لم يقرأه لمعانيه قرأه لأسلوبه ، وفى هذا الكتاب فصل مستفيض عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، نقتطف منه ما يلى :

« من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين . إن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق .

لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ، ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان ، لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين ، وماتت ، أكذوبة كاذبة ، أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً ، وكان الأجدر بها ألا توجد .

هل رأيتم رجلاً كاذباً ، يستطيع أن يخلق ديناً ، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد ، فما بالك بالذى يبنى بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع . . وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق .

وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول . . وما هو

إلا شهاب أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

أحب محمداً . لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى ، لا يعتمد إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبراً ولا ذليلاً ، فهو قائم فى ثوبه المرقع ، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين ، أكاسرة العجم ، وقياصرة الروم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة . والحياة الآخرة .

وماكان محمد بعاشق قط ، ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو ، فكانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء . أما التلاعب بالأقوال ، والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط .

ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان . . كلا واسم الله .

لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، المملوء رحمة وبراً وحناناً ، وخيراً ونوراً وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوى ، وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .

ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وآثاره ، حمق وسخافة وهوس إن رأينا رأيهم . أية فائدة لرجل على هذه الصورة فى جميع بلاد العرب ، وفى تاج قيصر وصولجان كسرى جميع ما بالأرض من تيجان .

لم يكن كغيره ، يرضى بالأوضاع الكاذبة ، ويسير تبعاً للاعتبارات

الباطلة ، ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل .

لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبخالق الكون والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه .

لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثاً من قلب الطبيعة ذاتها . . ولهذا وجدنا الآذان إليه مصغية ، والقلوب لما يقول واعية .

لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وسائر أموره وأحواله ، فكان طعامه عادة الخبز والماء ، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار .

فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل متقشف ، خشن الملبس والمأكل ، مجتهد فى الله . دائب فى نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان .

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالاً وإكباراً ، ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون حوله ، يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه . . لقد كان فى قلوب العرب جفاء وغلظة ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم ، لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلاً ، وايم الله .

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ، ولما انقادوا لمشيئته .

وفى ظنى أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا

النبى ، لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته ، كما استطاع هذا النبى فى ثوبه المرقع » .

هكذا تكون العظمة .

وهكذا تكون البطولة .

وهكذا تكون العبقرية .

* * *

٣ – تولوستوى :

ولعلنا لسنا بحاجة إلى الحديث عن «تولستوى» أديب وكاتب روسيا الأعظم ، لقد كان من هؤلاء الذين سمت نفوسهم إلى درجة لا نكاد نجد لها مثيلاً فى التاريخ إلا نادراً ، كانت سعادة الإنسانية همه الملازم فى كل آونة ، كان باستمرار يفكر فى تخفيف ويلات الإنسانية وفى معالجة المرضى.. فى تسلية بائسهم ، فى إطعام جائعهم ، فى التخفيف عن منكوبهم ، وككل العباقرة الذين تسمو بهم عبقريتهم عن المستوى العادى . . صادف فى حياته العقبات والآلام ، وبغض الحاقدين ، وكراهية الذين لا يحبون الحق .

ومن مآثره الكريمة : أنه حينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام ، كتب رأيه فى هذا الدين الذى أعجب به وتحدث عن رسوله الذى نال إكباره ، وكان جزاؤه على ذلك ، أى على كلمة الحق التى يدين بها : أن حرمه البابا من رحمة الله ، فكان ذلك كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطباً الأديب الكبير :

«فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس : أنك لست من القوم الضالين» .

ونحن ننشر هنا كلمة صغيرة جداً من رأيه ، ثم ننشر خطاب الشيخ محمد عبده الذى وجهه إليه :

يقول «تولستوى» :

«لا ريب أن هذا النبى : من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً : أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا . .

ويكفيه فخراً : أنه فتح طريق الرقى والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال» .

أما خطاب الشيخ محمد عبده فهو التالى[1] :

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى :

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التى هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه ، وسعياً يبقى ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس ، لما انحرفوا عن سنة الفطرة ،

---

(١) وقد نشره الشيخ رشيد رضا فى كتابه عن الشيخ محمد عبده .

وحينما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ، فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم . .

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هادياً للعقول ، كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثالك فى العمل إماماً يقتدى به المسترشدون .

وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء ، كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء ، وإن أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك ، فى النصح والإرشاد ، هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين ، فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم . . كما كنت فارقتهم فى عقائدهم .

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك ، فيما تستقبل من أيام عمرك .

وإنا نسأل الله أن يمد فى حياتك ، ويحفظ عليك قواك ، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ، ويسوق النفوس إلى التأسى بك فى عملك والسلام » .

* * *

٤ – اللورد هيدلى :

كان لإسلام اللورد هيدلى ، ضجة كبيرة – لمركزه ، ولما يعلمه فيه عارفوه ، من نضج فى التفكير ، وترو فى الأمور ، وحينما أراد الحج مر بالإسكندرية ، فأقام له أهالى الثغر حفلة كبرى وضعت تحت رعاية الأمير السابق – عمر طوسون – الذى ألقى كلمة حيا فيها الضيف الكريم ابتدأها بقوله :

« مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً ، لقد خفت مصر إلى استقبالكم ، وابتهجت بمقدمكم الكريم ، وكان سرورها بذلك عظيماً ، حتى لقد تمنت كل مدينة أن تسعى بأهلها إليكم ، أو يكون لكم متسع من الوقت لزيارتها ، فتقوم بما يجب لكم من الإجلال والإعظام ، والترحيب والإكرام » .

وكانت الحفلة برئاسة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الغنى محمود شيخ علماء الإسكندرية .

كيف أسلم اللورد هيدلى ؟

ما هى العوامل التى دعته إلى اعتناق الإسلام ؟

إننا فى الصفحات التالية سنذكر جملة من النصوص ترشد القارئ إلى سبب رفضه المسيحية وإلى سبب إسلامه ، وإلى تصوره لكثير من وجهات النظر الإسلامية .

يقول اللورد :

« عندما كنت أقضى – أنا نفسى – الزمن الطويل من حياتى الأولى فى جو المسيحية ، كنت أشعر دائماً أن الدين الإسلامى : به الحسن ، والسهولة ، وأنه

خلو من عقائد الرومان والبروتستانت ! !

وثبتنى فى هذا الاعتقاد ، زيارتى للشرق التى أعقبت ذلك ، ودراستى للقرآن المجيد . . » .

له الله . . لكم تألم وقاسى فى سبيل وصوله إلى الحق .

استمع إليه يقول :

« فكرت وصليت أربعين سنة ، كى أصل إلى حل صحيح .

ويجب على أن أعترف أيضاً أن زيارتى للشرق ملأتنى احتراماً عظيماً للدين المحمدى السلس الذى يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة ، لا فى أيام الآحاد فقط » .

ويرى أن الإسلام هو الدين العالمى حقًّا :

« أيمكن إذن ، أن يوجد دين يمكن العالم الإنسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيق ، الذى هو فوق الجميع ، وأمام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتلبيك ؟ . .

فكر لحظة – وذلك تفكير لازم لكمال البشر فى الحقيقة – إنه إذا أصبح كل فرد فى الإمبراطورية الإنجليزية محمدياً حقيقياً ، بقلبه وروحه ، أصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك ، لأن الناس سيقادون بدين حقيق » .

وها هو ذا يعبر عن الشكر حينما هداه الله :

« روح الشكر هى خلاصة الدين الإسلامى ، والابتهال أصل فى طلب القيادة والإرشاد من الله .

إنه وإن كان شكرى لله على كرمه وعنايته ، كان متأصلاً فىّ ، من صغرى

وأيام حداثتى ، فإننى لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية ، التى قرع فيها الدين الإسلامى لبى حقاً ، وتملك رشدى صدقاً ، وأقنعنى نقاؤه ، وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى ، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل ، كما أستنشق هواء البحر ، الخالص النقى . وبتحقق من سلاسة وضيـاء وعظمة الإسلام ومجده ، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم ، إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار» .

ومما يذكر من تعاليم الإسلام مشيداً به :

«ليس هناك فى الإسلام إلا إله واحد ، نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع ، وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ، رؤية ربّهم القهار ، المتصل دواماً بكل مخلوقاته ، سواء كانوا عاديين ، أو أولياء مقدسين .

مفتاح السماء موجود دائماً فى مكانه ، ويمكن إدارته بأذل وأقل المخلوقات دون أية مساعدة من نبى أوكاهن أو ملك ، إنه كالهواء الذى نستنشقه مجاناً لكل خلق الله .

أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك ، ما دعاهم إلى هذا العمل إلا حب الفائدة .

ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانة ، لأبين جلال وسلاسة الديانة الإسلامية ، التى هى خالية فى نظر الكاتب المنصف من

العوائق الظاهرة جلياً فى كثير من الديانات الأخرى . . » .

ولقد افترى كثيرون على الإسلام ، وها هو ذا يرد على افتراءاتهم :

«ليس فى وسع الإنسان ، فى الحقيقة إلا أن يعتقد أن مديجى وناسجى هذه الافتراءات ، لم يتعلموا ، حتى ولا أول مبادئ دينهم ، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم ، تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق .

إن تعاليم القرآن الكريم ، قد نفذت وموورست فى حياة محمد الذى – سواء فى أيام تحمله الألم والاضطهاد ، أم فى زمن انتصاره ونجاحه – أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا يتسنى لمخلوق آخر إظهارها .

فكل صفات الصبر والثبات فى عصره كانت ترى فى أثناء الثلاث عشرة سنة التى تألمها فى مجاهداته الأولى بمكة ، ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع فى الثقة بالله ، وأتم كل واجباته بشمم وحمية .

كان ، ﷺ ، مثابراً ، ولا يخشى أعداءه ، لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله ، ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه .

لقد أثارت تلك الشجاعة التى لا تعرف الجفول – تلك الشجاعة التى كانت حقاً إحدى مميزاته وأوصافه العظيمة – إعجاب واحترام الكافرين ، وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله . . ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا ، وازداد إعجابنا به بعد ذلك فى حياته الأخيرة ، أيام انتصاره بالمدينة ، عندما كانت له القوة ، والقدرة على الانتقام ، واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل ، بل عفا عن كل أعدائه .

العفو والإحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك الصفات ، كانت ترى منه فى

كل تلك المدة ، حتى إن عدداً عظيماً من الكافرين اهتدوا إلى الإسلام عند رؤية ذلك .

عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه ، آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة ، وأغنى فقراءهم ، وعفا عن ألد أعدائه ، عندما كانت حياتهم فى قبضة يده ، وتحت رحمته . . ! !

تلك الأخلاق الربانية التى أظهرها النبى الكريم ، أقنعت العرب بأن حائزها يجب ألا يكون إلا من عند الله ، وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقاً ، وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم : حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصداقة متينة » .

محمد المثل الكامل :

« نحن نعتبر أن نبى بلاد العرب الكريم ، ذو أخلاق متينة ، وشخصية حقيقية وزنت واختبرت فى كل خطوة من خُطَى حياته ، ولم ير فيها أقل نقص أبداً .

وبما أننا فى احتياج إلى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة ، فحياة النبى المقدس تسد تلك الحاجة .

حياة محمد : كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى ، والسخاء والكرم ، والشجاعة والإقدام ، والصبر والحلم ، والوداعة والعفو ، وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكون الإنسانية . ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة . . . خذ أى وجه من وجوه الآداب وأنت تتأكد أنك تجده موضحاً فى إحدى حوادث حياته .

ومحمد وصل إلى أعظم قوة ، وأتى إليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة

لا تجارى ، وكان ذلك سبباً فى هدايتهم ونقائهم فى الحياة» . ! !

رحم الله اللورد هيدلى ، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء . .

* * *

٥ – الشيخ عبد الواحد يحيى :

هو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفى «رينيه جينو» الذى يدوى اسمه فى أوربا قاطبة ، وفى أمريكا ، والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون بالدراسات الفلسفية والدينية .

وقد كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقتدوا به ، واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة ، تعبد الله على يقين فى معاقل الكاثوليكية فى الغرب .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً فى آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد – بعد دراسة عميقة – سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف ولا التبديل ، لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون) .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفسانى فى رحاب الفرقان .

ومؤلفاته كثيرة مشهورة ، من بينها كتاب «أزمة العالم الحديث» بين فيه

الانحراف الذى تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : «الشرق والغرب» ، فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل شرقى يفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبيناً أصالته فى الحضارة ، وسموه فى التفكير ، وإنسانيته التى لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء وعدوانه الذى لا يقف عند حد وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً فى كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادئ الإنسانية . . .

وقد كتبنا عن الشيخ تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، ننشره فيما يلى :

«رينيه جينو : من الشخصيات التى أخذت مكانها فى التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالى وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلوطين ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

«وإذا كان الشخص ، فى بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذى يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ «رينيه جينو» أنه قدر فى أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته ، أما فى أثناء حياته ، فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس

المسلك ، ولكنها رأت فى «رينيه جينو» خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت حتى الحديث عنه .

«وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابى ، الذى لا يقل فى أهميته عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة «رينيه جينو» فألفوا جمعيات فى جميع العواصم الكبرى فى العالم ، وعلى الخصوص فى سويسرا ، وفى فرنسا . والمكونون لهذه الجمعيات احتذوا حذو «رينيه جينو» فاتخذوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ، شعاراً وديدناً ، ويكونون وسط هذه المادة السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابى أيضاً ، أن كتبه ، برغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت فى جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ، ما عدا العربية للأسف الشديد .

«ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة الهند الصينية ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا «الدالاى لاما» ، ولم يكن يوجد فى الغرب شخص متخصص فى تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بآراء «رينيه جينو» .

«كل هذا التقدير ، كان فى حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير : لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض الصحف المصرية العربية .

وقد خصصت له مجلة : «فرنسا - آسيا» ، وهى مجلة محترمة . عدداً ضخماً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير كاتب

فرنسا الأكبر، «أندريه جيد»، وقوله فى صراحة لا لبس فيها : إن آراء «رينيه جينو» لا تنقض.

وخصصت مجلة «ايتودترا ديسيونيل»، وهى المجلة التى تعتبر فى الغرب كله لسان التصوف الصحيح، عدداً ضخماً من أعدادها، كتب فيه أيضاً كبار الشرقيين والغربيين.

ثم خصص له الكاتب الصحفى الشهير، «بول سيران»، كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه، ووضعه، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه، فى المكان اللائق به، بجوار الإمام الغزالى أو الحكيم أفلاطون».

نشأ «رينيه جينو» فى فرنسا من أسرة كاثوليكية، ثرية محافظة، نشأ مرهف الحس، مرهف الشعور، مرهف الوجدان، متجهاً بطبيعته، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة، وهاله، حينما نضج تفكيره، ما عليه قومه من ضلال، فأخذ يبحث فى جد عن الحقيقة، ولكن أين هى ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ وهل هى فى السماء أو فى الأرض ؟

أين الحقيقة ؟

سؤال وجهه «رينيه جينو» إلى نفسه كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبى، والإمام الغزالى، والإمام محيى الدين بن عربى، وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى . . . وتأتى فترة الشك والحيرة والألم الممض، ثم يأتى عون الله. وكان عون الله، بالنسبة إلى «رينيه جينو» أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة، وغمره ضياؤه الباهر،

فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وأصبح جندياً من جنوده يدافع عنه ، ويدعو إليه .

ومن أمثلة ذلك ماكتبه فى كتابه « رمزية الصليب » تفنيداً للفرية التى تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف . . ومن أمثلة ذلك أيضاً ، ماكتبه فى مجلة «كابيه دى سور » فى عددها الخاص بالإسلام والغرب ، دفاعاً عن الروحانية الإسلامية . لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام ، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية ، وأكبروا من شأنها . ووضعوا التصوف المسيحى فى أسمى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الإسلامى . فكتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، مبيناً سمو التصوف الإسلامى وروعته ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى ، أو « المستيسزم » ، وانتهى بأن هذا « المستيسزم » لا يمكنه أن يبلغ ، ولا عن بعد ، ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ عبد الواحد يحيى ، لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد فى جميع كتبه وفى مواضع لا يأتى عليها الحصر بالشرق .

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . وأتى الشيخ عبد الواحد ، فقلب الأوضاع رأساً على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحى والإلهام :

ولقد كتب الشيخ عبد الواحد مقالاً مستفيضاً بعنوان : « أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب » ،بيَّن فيه فضل الثقافة الإسلامية على أوربا ، يقول :

«إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية فى القرون الماضية ، بل ربما لم يدركوا منها شيئاً مطلقاً ، وذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل . فإنها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك .

ويلاحظ أن دراسة التاريخ فى المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير . بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف قصداً فى كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر .

مثال ذلك ما هو شائع معروف من أن إسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامى عدة قرون ، على حين لا يذكر التاريخ الغربى قط ، أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامى أيضاً . وربما عزا البعض هذا الإهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الدينى ، ولكن ما هى حجة المؤرخين المعاصرين – وغالبهم لا دينى – فى موافقتهم أسلافهم فى قلب الحقائق ؟ لهذا ينبغى أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدراك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله أنه بينما يعتبر الأوربيون أنفسهم الورثة المباشرين للمدنية اليونانية القديمة ، فإن الحق يدحض زعمهم هذا : إذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل إلى الأوربيين إلا بواسطة المسلمين ، وبعبارة

أخرى ، لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين إلى الغرب ، إلا بعد أن درسها الشرق .

ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمناً طويلاً بل ربما لم يدركوها كلية . وينبغى أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الإسلامية ، لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحياناً . وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الإسلامية لم يكونوا من العرب الخلص ، وإذا كانت لغتهم عربية ، فإن ذلك ناتج عن تأثرهم بدينهم الإسلامى ، وما دمنا قد ذكرنا اللغة العربية ، فإننا نلاحظ دليلاً واضحاً يثبت لنا انتقال المؤثرات الإسلامية فى الغرب : وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت التى استعملت تقريباً فى كل اللغات الأوربية ، بل مازالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل .

وبما أن الكلمات هى التى تستعمل لنقل الأفكار ، وإظهار ما تكنه النفوس ، فإن من السهل علينا جداً أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الإسلامية نفسها ، وفى الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية قد تناول لدرجة بعيدة وبشكل محسوس ، كل العلوم والفنون والفلسفة وغير ذلك . وقد كانت بلاد الأسبان مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة . وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الأنواع بالتفصيل ، ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الإسلامية فيها ، ولكنا نركز بحثنا فى بعض نقط نعتقد أنها من الأهمية بمكان ، وإن قل من يدركها فى وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية . فأما عن الأولى فإنا نعلم علم اليقين أنها انتقلت بكلياتها وجزئياتها إلى أوربا عن طريق الحضارة الإسلامية مصبوغة بالصبغة الإسلامية تماماً . فالكيمياء احتفظت دائماً باسمها العربى الذى يرجع أصله إلى مصر القديمة ، والذى كان له معنى من أعمق المعانى التى لم يعرفها الكيمائيون الحديثون حقيقة .

ولنضرب مثلاً آخر ، ذلك علم الفلك فإن أكثر اصطلاحاته الخاصة ما تزال محتفظة فى كل اللغات الأوربية بأصلها العربى ، كما أن كثيراً من النجوم ما يزال علماء الفلك فى كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية .

وهذا يرجع إلى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء ، مثل بطليموس الإسكندرية ، كانت معروفة فى التراجم العربية ومجتمعة مع المؤلفات الإسلامية .

ومن السهل جداً أن نوضح أن كثيراً من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة فى آسيا وأفريقيا عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيراً من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة .

أما من ناحية الاختراعات – وهى تابعة للعلوم الطبيعية – فقد انتقلت أيضاً بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين . وما تزال قصة الساعة المائية التى أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان عالقة بالأذهان ثابتة الوقائع .

أما الرياضيات فيجب أن نعيرها التفاتاً خاصاً ، وذلك لأهميتها فى هذا البحث ، فإن ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ، بل نرى فيه

أكبر الأثر للثقافة الإسلامية ، مضافاً إليها علوم الهند أيضاً . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال فى الهندسة وعلم الأرقام . ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائماً مع الأول من أشكال عليها أسماؤها العربية .

وهذا التفوق الذى كان للهندسة يظهر لنا جلياً فى الجملة التى حفرها أفلاطون على مدخل مدرسته : (لا يدخله إلا عالم بالهندسة) .

ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ولكنه لم يكن معروفاً – كالعلوم الأخرى – فى اللغات الأوربية بالاسم اليونانى : لأنه لم يكن معروفاً بين اليونانيين القدماء : هذا هو علم الجبر الذى كان مصدره الأول الهند ، والذى يسهل علينا من اسمه العربى أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب .

حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو أنها قليلة الأهمية ، ولكنها تدل أيضاً على ما قدمنا ، وهى أنه من الشائع فى كل مكان أن الأرقام التى يستعملها الأوربيون هى نفس الأرقام التى استعملها العرب ، ولو أن مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التى كان العرب يستعملونها قديماً ما هى إلا حروف الهجاء نفسها .

وإذا انتقلنا من بحث العلوم إلى بحث الفنون ، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المعانى التى جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين فى الأدب والشعر ، قد أخذت واستعملت فى الأدب الغربى ، بل أكثر من هذا فإن بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم .

وكذلك نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة فى فن البناء ، وذلك فى العصور الوسطى : فمن ذلك شكل القوس المعقود

الذى صار متميزاً بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها . وقد كان مصدره فن البناء الإسلامى ولو أن كثيراً من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة . ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائماً البناءون أنفسهم ، وهى تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق . وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت للغتهم معنى رمزيًّا ، فكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الأرقام . وقد نسب هذا العلم فى مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان .

ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما أن يكون انتقاله إلى أوربا إلا بواسطة العالم الإسلامى . ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المعماريين – وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة – كانوا يعتبرون أنفسهم كأنهم أجانب فى الغرب حتى فى مساقط رءوسهم . وقد ظلت هذه التسمية حتى الآن . على أن هذه الأمور صارت غير معروفة إلا للقليلين جداً .

فى هذه النظرة العجلى ، ينبغى أن نذكر بصفة خاصة نوعاً آخر هو الفلسفة . فقد بلغ التأثير الإسلامى فى القرون الوسطى مبلغاً عظيماً لم يستطع أشد خصوم الشرق تعصباً أن ينكر قوته ، وهذا صحيح ، فإن أوربا لم يكن فيها من وسيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية فى ذلك الزمن ، وذلك لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو – وهى التى استعملت حينئذ – لم تنقل أو تترجم من الأصل اليونانى مباشرة ، بل أخذت من الترجمة العربية السالفة وأضافوا إليها ماكتبه المعاصرون المسلمون فى الفلسفة الإسلامية . ومن أولئك المعاصرين : ابن رشد ، وابن سينا ، وغيرهما .

والفلسفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت باسم «الفلسفة المدرسية» كانت تتميز بها الفلسفة الإسلامية واليهودية والمسيحية .

ولكن من الإسلامية استمد النوعان الآخران مصدرهما ، بل إن الفلسفة اليهودية وهى التى ازدهرت فى إسبانيا كانت لغتها عربية .

وذلك ثابت ويرى فى المؤلفات الهامة لموسى بن ميمون ، وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر – بعد قرون عديدة كثيراً من فلسفته الخاصة ، ذلك هو : سبينوزا .

وليس من الضرورى أن نصر على بحث أشياء معلومة لكل من درس شيئاً من تاريخ الفكر ، بل يحسن أن نبحث أخيراً فى أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعرفه معظم الحديثين ، خصوصاً فى الغرب ، بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فكرة ذات أهمية عنه .

ولكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبرى أكثر من كل المعارف الخارجية التى تحتويها العلوم والفلسفة ، وما نقصده بهذا هو التصوف وما يتصل به أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الأخرى الثانوية التى تختلف عن تلك العلوم التى يدرسها الحديثون كل الاختلاف .

وليس للغرب فى وقتنا هذا شىء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها ، بل أكثر من هذا أن الغرب لا يعرف أيضاً من المعارف الحقة كالتصوف ، أو ما يماثله ، شيئاً مطلقاً . على أن هذه الحال لم تكن هى الحال فى القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضاً أثرها الإسلامى البين الواضح بأجلى وضوح فى تلك العصور . ومن السهل جداً ملاحظة أثر ذلك فى بعض المؤلفات التى

تختلف معانيها الحقيقية عن المثرات الأدبية كل الاختلاف .

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربيين أنفسهم ، وذلك خلال دراساتهم لأشعار « دانتى » الإيطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحقة ، ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الإسبانى « دون ميجيل آسين بلاثيوس » كتاباً عن المؤثرات الإسلامية فى مؤلفات « دانتى » جاء فيه أن جزءاً كبيراً من الرموز والإشارات التى استعملها « دانتى » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب المسلمين ، وبخاصة سيدى محيى الدين بن عربى ، ولكن لسوء الحظ نرى أن ملاحظاته لم تتعد التخيلات الشعرية . على أن هناك كاتباً آخر إيطالى الجنس هو « لويجى فالى » الذى توفى حديثاً ، تعمق بعض التعمق فى البحث ، فذكر أن دانتى لم يكن وحده الذى استعمل الإشارات المماثلة لما كان مستعملاً فى الشعر الصوفى الفارسى والعربى ، بل إن كثيراً من الشعراء المعاصرين لدانتى فى مملكته كانوا أعضاء فى اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتى نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة .

ولما حاول « لويجى فالى » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من إدراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة أو ما يماثلها من الهيئات التى وجدت فى أوربا أيام القرون الوسطى ، على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف تلك الهيئات لتكون مصدر إرشاد لها . وقد كانت تلك الشخصيات السرية تعرف بأسماء مختلفة من أهمها تلك التسمية « إخوان الوردة والصليب » . وليس لهؤلاء قواعد مكتوبة يسيرون عليها .

كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة . وكل ما كانوا يعرفون به هو أنهم

وصلوا إلى حالات روحية خاصة . ويمكننا أن نصفهم بأنهم صوفيون غربيون أو على الأقل متصوفة فى درجات عالية .

وقد قيل : إن هؤلاء «الإخوان» الذين كانوا يتسترون بألبسة البنائين ورموزهم كانوا يعلمون الكيمياء وعلوماً أخرى تماثل ما كان مزدهراً من العلوم فى العالم الإسلامى .

وفى الحق أنهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، وكانوا على اتصال مباشر بالصوفيين المسلمين . وقد كان ذلك الاتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالى . وليس هذا معروفاً فى التاريخ الذى لا يتعمق كثيراً فى البحث ، بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجى ، مع أن هناك المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا مغاليق كثير من الأشياء ، ولولاه لاستمرت دائماً غير واضحة بالمرة .

هذا جزء من كل من أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب ، ولكن الغربيين لا يريدون أن يعترفوا به فى وضوح لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم ، ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التى يريدون إخفاءها» .

وأثر الحضارة الإسلامية على أوربا موضوع كتب فيه كثيرون من زوايا مختلفة ، ونحب الآن أن نضيف إلى ما كتبه الشيخ عبد الواحد ، رأى الأستاذ بريفولت . وقد أورده الدكتور محمد إقبال فى كتابه بناء الإنسانية ، وقدم له مقدمة تبين أن الإسلام دعا إلى التجربة والملاحظة والاستقراء ، أى أنه دعا إلى المنهج العلمى الحديث فانتشر فى ربوع الحضارة الإسلامية ، ثم انتقل من

حضارة الإسلام ، غازياً أوربا ، فكان السبب فى نهضتها ، ثم يقول : فالزعم بأن أوربا هى التى استحدثت المنهج التجريبى ، زعم خاطئ يقول دوهرنج : «إن آراء روجربيكون ، فى العلوم ، أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور» .

ومن أين استقى روجربيكون ما حصله فى العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس . والقسم الخامس من كتابه الذى خصصه للبحث فى البصريات هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم . وكتاب بيكون ، فى جملته ، شاهد ناطق على تأثره بابن حزم .

لقد كانت أوربا بطيئة نوعاً ما فى إدراك الأصل الإسلامى لمنهجها العلمى . وأخيراً جاء الاعتراف بهذه الحقيقة ، وسأتلو عليكم فقرة أو فقرتين من كتاب «بناء الإنسانية» الذى ألفه بريفولت .

يقول بريفولت :

«إن روجربيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس لروجربيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى . فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام .

ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون ، فى نشأة الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره — أى فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم ، كما رأينا ، لم يكن للعلم فيه وجود .

وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم ، كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعَمَّموا الأحكام ، ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج

التفصيلية للعلم ، والملاحقة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى ، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلينى .

أما ما ندعوه العلم ، فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة ، لم يعرفها اليونان .

وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

٦ – الدكتور جرينيه :

قال الرحالة السيد محمود سالم ، فى مقال له ، نشر فى مجلة المنار ، مجلد ١٤ ص ٥١٨ :

قصدت فى سياحاتى مدينة « بونتارليه » لمقابلة الدكتور « جرينيه » المسلم الفرنساوى الشهير ، الذى كان فى السابق عضواً فى مجلس النواب ، قابلته لأجل أن أسأله عن سبب إسلامه .

فقال :

إنى تتبعت كل الآيات القرآنية ، التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، والتى درستها من صغرى ، وأعلمها جيداً ، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فأسلمت لأنى تيقنت أن محمداً ﷺ ، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون معلم أو مدرس من البشر . ولو أن كل صاحب فن من الفنون ، أو علم من العلوم ،

قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً ، كما قارنت أنا . . لأسلم بلا شك ، إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض .

٧- إتيين دينيه :

ولد «الفونس إتيين دينيه»[1] فى باريس سنة ١٨٦١ ، وعاش - رحمه الله - فناناً بطبعه : كان مرهف الحس ، رقيق الشعور ، جياش العاطفة .

---

(١) ألفت المودة بين الأستاذ الأديب راشد رستم ، والمغفور له ناصر الدين ؛ وقد كان الأستاذ راشد أول من عرف المصريين به ، فقد ترجم رسالته : «أشعة خاصة بنور الإسلام» إلى اللغة العربية ، ونشرها فى صورة حسنة ، وحينما توفى ناصر الدين سنة ١٩٢٩ كتب الأستاذ راشد عنه مقالاً فى جريدة الأهرام . وقد استأذناه فى الانتفاع بالترجمة العربية لرسالة «أشعة خاصة بنور الإسلام» عند المناسبات التى تعرض خلال عملنا هذا ، وكذلك فى نشر مقاله الذى كتبه بجريدة الأهرام ؛ فأذن بذلك راضياً مغتبطاً ، ولا يسعنا إلا أن نسجل له الشكر الجزيل ؛ راجين من الله أن يجزيه أحسن الجزاء . وفيما يلى المقال المذكور :

«مات هذا المستشرق النابه ، وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير ، العدد العديد من كبار قومه الرسميين ، ومن أصدقائه ، وعارفى فضله من أهله ، ومن غير أهله ، من ممثلى الشعوب الشرقية التى أحبها وخدمها . وقد وجب علينا - وإن كنا لم نقف هناك فى باريس مع الواقفين خاشعين - أن نبعث إلى روحه تحيات السلام والاعتراف بالجميل .

أحب المسيو «دينيه» حياة العرب ، وهو ذلك الفنان الكبير ، فاتخذ له بينهم مقاماً محموداً فى بلاد الجزائر ، فى تلك الواحة الهادئة الجميلة «بوسعادة» ينتقل إليه ويسكنه نصف العام كاملاً . يرتاح للعرب وجيرتهم ، ويروح عن نفسه بينهم ، وينعم بما فى حياتهم من جلال تلك المناقب المأثورة عنهم ، وتلك المكارم المعروفة بهم ، والتى لا يميل إليها إلا عشاق الخيال السامى ، ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية .

وقد وضع فى حياة العرب كتاباً جميلاً جليلاً ، ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ، ذات البلاغة فى تصويرها ، والبيان فى صحتها . =

= والمسيو «دينيه» يبلغ من العمر سبعين عاماً ، وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير ، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، تزدان بها جدران المعارض الفنية ، وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم ، وله فى متحف (لوكسمبرج) – وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس عدة صور ، منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم : (غداة رمضان) وكذلك له صورة فى متحف (بو) وكذلك فى متحف (سدنى) بأستراليا ، وغير ذلك كثير .

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة فى رسم الصحراء ، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة ، وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين ، وامتاز عنهم بتخصصه فى تصوير الحياة الإسلامية ، وبالأخص ما كان منها فى بلاد الجزائر .

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح ، حتى قيل عنه : إنه المصور الفريد بين إخوانه ، الذى يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل،وهم يقولون عنه : إنه المصور «العربى» .

وقد جاءت ترجمة المسيو «دينيه» وأعماله فى معجم «لاروس» الكبير ، وفى معلمة «هاشيت» للفنون الجميلة . وله عدة مؤلفات منها (حياة العرب) الذى ذكرناه ، وكتاب (السراب) ، وكتاب (حياة الصحراء) ، وكتاب (ربيع القلوب) ، وكتاب (الشرق كما يراه الغرب) ، وكلها تشير إلى ما فى طبيعته من الخلق الطيب ، وما يحمله فى قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول سيدنا محمد ﷺ ، وهو السيرة النبوية فى مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية ، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة ، من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الإسلامية ، ومشاهد الدين ومعالمه ، وطبعه طبعاً غاية فى الإتقان والعناية ، حتى إنه ليعد تحفة من تحف الطباعة .

كل ذلك كان تقديراً منه لموضوعه ، ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين ، ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والإتقان التام ، والكتاب فى طبعته قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ، ذات الأشكال العربية ، غاية فى الدقة والإبداع ، وهى اللوحات التى قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائرى ، أشهر رجال الزخرفة العربية ، والذى أشار إليه المسيو «لازار» الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها ، وذلك فى المحاضرة التى ألقاها فى النادى الفرنسى بالقاهرة فى شهر مارس سنة ١٩٢٩ ، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية . =

= وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للمسيو « دينيه » شيئاً بالعربية قبل تلك الرسالة التي عربناها له : (أشعة خاصة بنور الإسلام) والتي نشرت بمصر في هذا العام ، وهي التي جعلها بحثاً عصرياً في مبادئ الدين الإسلامي ، وأراد إظهار هذه المبادئ واضحة جلية ، وإنها تفضل مبادئ المدنيات الحاضرة . ولعل هذه الرسالة هي آخر ما كتب ، اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التي كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها بهمة ونشاط ، وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز ، هذا العام ، بعد أن أدى فريضة الحج .

وإذا سمحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئاً فإنه ذكر لنا في كتابه إلينا أنه لاقى من التعب والمشاق الشيء الكثير ، برغم ما لاقاه من التكريم والعناية الخاصة ، وبرغم نسيانه المشقة في سبيل الله ، وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتون رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

والمسيو « دينيه » كاتب رقيق العبارة ، واسع الاطلاع ، لذلك فهو صحيح الحجة ناهض البرهان ، ثم هو شديد الهجوم شديد الدفاع ، ذلك لأنه غيور على مبدئه الذي لم يتخذه إلا بعد بحث وتفكير .

وقد أعلن إسلامه رسمياً بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ ، وطلب أن يدفن في قبره مسلماً حنيفاً ، وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بوسعادة) بالجزائر ، وقد ذكرت الأهرام في تلغرافاتها الخصوصية أمس : أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول : إنه لم يسلم لطمع ، أو مغنم ، (والرجل غني موسر الحال) وإنما أسلم إرضاء ليقينه وضميره ، وإنه ناقش الناصرين والطاعنين . فخرج من « دينيه » إلى « ناصر الدين » .

وله في بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلمية ، ولوحات تصويرية ، تشهد له بإخلاصه في حب الشرق ، وتقوم دليلاً على حبه للعدل والإنصاف . وقد استفتاه بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكتب يقول : « إن الغرب يخطئ النظر إلى الشرق ، مع أن للشرق على الغرب أفضالاً متأصلة في مدنيته ، متغلغلة في حياته ، ذلك من أثر الدينيات ، التي هو مدين فيها للشرق ، ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها اليهودية الشرقية ، ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء ، التي منشؤها أنظمة الفروسية العربية ، ومن أثر علم البحار وعلم السماء ، وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية » .

ويقول : « إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة ، وإن الغرب يخطئ إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية ، مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة .

وكان صاحب طبيعة متدينة أيضاً : كان كثير التفكير ، جم التأمل ، يسرح بخياله فى ملكوت السموات والأرض ، يريد أن يخترق حجبه ، ويكشف عن مستتيره ، ويصل . . إلى الله .

كان فناناً يتملكه شعور دينى ، وكان متديناً ، يغمره ويسيطر عليه شعور فنى ، وامتزج فيه الفن بالدين ، فكان مثالاً واضحاً للإنسان الملهم .

نشأ من أبوين مسيحيين ، وتلقن – بطبيعة الحال – العقائد المسيحية نظريًّا ، ومارسها عمليًّا ، وذهب به أبوه – ككل مسيحى إلى التعميد ، وإلى الكنيسة ، فشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران .

وعلى مر الزمن ، أخذت تستبين فيه طبيعته الفنية ، وأخذ يستولى عليه شعور بالقلق والحيرة من الناحية الدينية .

إن الفنان يتصور الخلود فى دقة لا تتأتى لغير ذوى الشعور الفنى ، ويتمنى الخلود ، ويريده ، ويعمل جاهداً لتكتب لوحاته فى سجل الخلود ، فتسمو على الزمن ، وترتفع عن حدود ما يتناهى .

وأصحاب الطبائع الدينية يفكرون فى الخلود ، ويتمنونه ويريدونه ، ويعملون جاهدين لكشف المعمى فيما يتعلق بمصيرهم الأبدى .

وكان « دينيه » يفكر فى لوحاته ، ويفكر فى مصيره ، ويعمل جاهداً ليبلغ

– وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولاً للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسى يحب بلاده الأصيلة ويحب الشرق الجميل النبيل ، ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلماً ومات مسلماً ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيماً على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة ، وأن يجتمع حول نعشه رجال فرنسا الرسميون من الوزراء ، يذكرون حسناته ويؤبنونه أحسن التأبين – ذلك لنبالة قصده ، ومتانة إنسانيته » (راشد رستم) الأهرام فى ١٩٣٩/١٢/١٩ م .

الذروة فى الفن ، ويعمل جاهداً لإزالة الظلمة المتكاثفة فى دائرة اللانهاية .

وكانت هناك وسائل لصقل – للصقل لا للإيجاد – الطبيعة الفنية ، والاتجاه بها نحو الكمال ، وفى ذلك ما يطمئن ، نوعاً ما ، وفى ذلك علاج – بعض العلاج – للقلق فيما يتعلق بالفن . وقد جد « دينيه » فى استكمال وسائل الصقل ، النظرية منها والعملية واتخذ لذلك الأسباب ، وأحس من هذه الجهة ببعض الطمأنينة .

ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة ؟ ليس لذلك من علاج سوى البحث والتأمل وإطالة التفكير فى الكون ، فى النصوص المقدسة ، وفى العقائد التى يدين بها الوسط المباشر ، والبيئة المحيطة . . . وفكر « دينيه » فى المسيحية ، وفى الكنيسة ، وفى البابا المعصوم ، وفى عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران . .

المسيح ابن الله ! وقد صلب ليطهر بنى البشر من اللعنة التى حلت بهم بسبب خطيئة آدم . .

إنه صلب ليفتدى البشر ، ثم هو ابن الله ، وهو الله . . وهو بشر . . وهو إله . .

ويدور رأس دينيه ، فلا يكاد يرى بارقة من أمل فى أن يهتدى إلى الحق فى كل ذلك . . وهل فى ذلك من حق ؟ . . وهل فى الظلمة من نور . .

ومع ذلك فلم ييأس ، بل أعاد قراءة الأناجيل من جديد محاولاً جهده أن يراها تتسم بسمة الحق ، فيؤمن بابن الله ، وبالكاثوليكية ، ولكنه رأى فيها

ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلاً عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها :

فمن أقوال المسيح التى فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه فى عرس «قانا» : «وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعا أيضاً يسوع تلاميذه إلى العرس ، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ، قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة»[1] .

ومن أقواله التى تحمل فى طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها ، لأنه لم يكن موسم تين : «فنظر شجرة تين من بعيد ، عليها ورق ، وجاء لعله يجد فيها شيئاً ، فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً ، لأنه لم يكن وقت التين فتعجب يسوع وقال لها :

لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد ، وكان تلاميذه يسمعون»[2] .

كذلك من أقواله الدالة على كره الغريب :

«. . . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد يا بن داود ، ابنتى مجنونة جدًّا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال :

---

(١) إنجيل يوحنا ، الإصحاح الثانى عشر ، هذا ما يقوله الإنجيل فيما يتعلق بصلة المسيح بأمه . أما القرآن فإنه يقول : (فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال : «إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا . وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا . وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيًّا . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا) .

(٢) إنجيل مرقص : الإصحاح الحادى عشر .

لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[1] »

ومن أقواله التى توجب كراهية الأقرباء :

« إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه ، وامرأته وأولاده ، وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً »[2] .

ومن أقواله التى فيها اعتراف بالجهل :

« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن إلا الأب »[3] .

هذه النصوص تبعث فى النفس الشك فى صحة الأناجيل التى بين أيدينا[4] .

وأداه ذلك إلى البحث فى صحة الأناجيل ، وفى قيمتها من الناحية التاريخية .

وكانت نتيجة بحثه : أنه لا شك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه . ولاشك أيضاً أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ، ولم يبق له أثر ، أو أنه باد ، أو أنه قد أبيد[5] .

ولهذا قد جعلوا مكانه « توليفات » أربعاً ، مشكوكاً فى صحتها ، وفى نسبتها التاريخية .

---

(١) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

(٢) إنجيل لوقا : الإصحاح الرابع عشر .

(٣) إنجيل مرقص : الإصحاح الثالث عشر .

(٤) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٥) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية ، وهى لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التى هى لغة سامية ، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود[1] . ورأى – فى النهاية - فى وضوح :

«إن الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة . وقد أظهرت الأدلة العديدة – سواء أكانت أخلاقية أم تاريخية ، أم علمية ، أم لغوية ، أم سيكلوجية ، أم دينية – أن الكاثوليكية ، ملأى بالأغلاط الواضحة» .

ولم يمكنه أن يقول ما قال القديس «أوغسطين» مما يعتبر شعار كل مسيحى :

«إننى أومن بذلك : لأن ذلك غير معقول»[2] .

وثار شعوره الدينى على أوضاع مبهمة ، وألفاظ غامضة ، ومشاكل لا تحل ، وانتهى به المطاف ، بعد بحث وجدل ومناظرات وتأملات ، إلى رفض المسيحية ، وبلغت حيرته حينئذ أشدها ، ولكن اليأس لم يتطرق إلى نفسه

---

(١) عن «أشعة خاصة بنور الإسلام» .

(٢) لاشك أن «دينيه» اطلع على مؤلفات «رينان» الذى كتب عن المسيح ، عليه السلام ، كتاباً يثبت فيه : «أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى والروح الكريمة» . و«رينان» لم يكن متطرفاً فى حكمه ، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجوداً تاريخياً حقيقياً ، ولكن آخرين أخذوا ينقبون فى بطون الكتب ، ويتتبعون الروايات ، فانتهوا إلى عدم الاطمئنان لوجود المسيح تاريخياً ، من هؤلاء «بنية» أستاذ علم الاجتماع بجامعة «السوربون» ، الذى اشترك مع زميلين له فى تأليف كتاب يهدف إلى ثبات أن المسيح أسطورة وأن انتشار المسيحية لم يكن إلا لأسباب سياسية بحتة ، أما الأستاذ جنيبر ، أستاذ تاريخ الأديان بالسوربون إلى عهد قريب ، فقد أثبت فى عدة مؤلفات ذات شهرة عالمية – أثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هى مسيحية المسيح ، بل لاتمت إلى مسيحية المسيح بصلة ، اللهم إلا الصلة الاسمية

قط ، وإذا لم يجد الهداية فى المسيحية فليس معنى ذلك أنه لن يجدها مطلقاً .

إن الحقيقة عزيزة المنال ، ولكنها موجودة ، والسبيل إليها : البحث .

ورأى «دينيه» أن يتجه إلى العقل ، يستمد منه الهداية إلى الطريق المستقيم ، ولكنه انتهى إلى أن العقل عاجز فى ميدان ما وراء الطبيعة ، وفى الواقع يسعى كثير من ذوى العقول المستنيرة – بعد أن أفاقوا من غفلتهم ، وبعد أن رأوا إخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة – لتعرف طريق الهداية ، وإلى أن مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه خلف حامل لوائه المسيو «برجسون» الشهير هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو هو – وهو الأصح – رد فعل لعجز هذا المذهب .

فقد جدد هذا المفكر – فى قلوب الناس النهمين إلى الإيمان – آمالاً كان يظهر أنها ضاعت ضياعاً نهائيًا ، فهو يأذن لهم بأن يأملوا فى خلود الروح ، ويقول لهم :

إن الدنيا ليست مشتبكاً عظيماً لقوى عمياء ، وإن العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة[1] .

أخفقت المسيحية فى إرضاء ضميره الدينى ، وأخفق العقل فى قيادته إلى النور ، إلام يتجه إذن ؟

وتلفت حوله ونظر : ماذا فعل أمثاله ممن شكوا فى المسيحية وشكوا فى العقل ؟

فرأى : أن نفراً من النصارى فى مختلف الأقطار الأوربية دانوا بالإسلام فى

(١) ناصر الدين : محمد .

الأعوام الأخيرة . . ويكثر عددهم على مر الأيام ، وفى لندن وليفربول جماعات إسلامية ذات شأن حقيق ، منهم فريق من أعيان الإنجليز[1] .

ورأى : أن الذين يعتنقون الإسلام فى وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم ، إنما هم من الخاصة سواء كانوا فى الهيئات الاجتماعية الأوربية ، أو الأمريكية ، كما أن إخلاصهم فى ذلك لا شك فيه ، لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية[2] .

وتبين له : أنه يوجد فى جميع أنحاء أوربا وأمريكا من اعتنقوا الإسلام ، وإذا كان هذا الأمر لايزال قليل الأهمية إذا نظرنا إلى قلة عدد المعتنقين – وإن كان عددهم لا بأس به – فإنه ذو أهمية كبرى ، نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ، ونذكر منهم على سبيل المثال : «اللورد هيدلى» الإنجليزى ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم «كرستيان شرفيس» أحد تلاميذ «أغست كومت» وأديباً من أدباء فرنسا المعدودين ، وفيلسوفاً من فلاسفتها المشهورين»[3] .

ومما لا ريب فيه : أن هناك مفكرين منصفين – لا غربيين فحسب – بل عالميين أيضاً ، درسوا الإسلام دراسة عميقة ، فأحبه البعض وناصره ، وآمن به البعض الآخر ، وأعلن إسلامه ، وصدق فيه .

---

(١) ناصر الدين : الشرق فى نظر الغرب .

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام .

(٣) الحج إلى بيت الله الحرام ، لناصر الدين ، ترجمة م ، توفيق أحمد .

ويقول أحدهم[1] :

«إنى أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً ، مسلمون قلباً ، ولكن خوف الانتقاد ، والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغير ، تامروا على منعهم من إظهار معتقداتهم» .

كيف ولماذ أسلم دينيه ؟

وما الميزات والخصائص التى جعلته يمنح الإسلام من الثقة ما لم يمنحه للمسيحية ؟

لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور فى نفسه ، عندما وقعت فى يده نسخة من مجلة إنجليزية ، فإذا به يجد جواباً ، عن أسئلته ، إذ قرأ فيها :

لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين ؟

ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة ، عملية فى جوهرها – لأننا معاشر الإنجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثاً بالعمل – عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط .

أحق هذا ؟

إن «دينيه» لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة ، وإذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة ، فإنه مع ذلك الاداة التى ترشدنا إلى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور . فأخذ يزن الأمور . . وأخذ يبحث . . أحق أن الإسلام «هو العقيدة الدينية الصحيحة» ؟

---

(١) اللورد «هيدلى» .

صلاحية العقيدة الإسلامية لكل زمان ومكان :

وكان من التوفيق أن سافر «دينيه» إذ ذاك إلى الجزائر ، وتنقل فى بلاد المغرب ، فخالط المسلمين وعاشرهم ، وسمع منهم ، وسألهم وناقشهم ، وفكر وتأمل ، فرأى ، كما يذكر فى رسالته «أشعة خاصة بنور الإسلام» :

إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الإسلام ، وفى الوقت نفسه حر التفكير .

وكما أن الإسلام قد صلح – منذ نشأته – لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات ، وأن تعاليم المعتزلة ، ذات القرابة المستترة والصلة الخفية ، بتعاليم الصوفية ، تجد مكاناً رحباً ، وقبولاً حسناً ، ورضاء سهلاً ، سواء عند العالم الأوربى ، أو عند الزنجى الأفريقى ، وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ، ومن معبوداته وأصنامه . .

«وبينما تجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى أسواق لندن ، حيث مبدأ القوم «الوقت من ذهب» إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الرومانى» .

وكما يتقبله – عن رضا – ذلك الشرقى ، ذو التأملات ، ورب الخيال ، إذ يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن ، وتملكه الشعر[1] .

لقد وقرت هذه الفكرة فى نفس «دينيه» حتى إنه ليرددها فى الكثير من كتبه

(١) عن «أشعة خاصة بنور الإسلام» .

فيما بعد ، يقول فى آخر كتابه (الحج إلى بيت الله الحرام) :

«لو كان الإسلام الحقيق معروفاً فى أوربا ، لكان من المحتمل أن ينال – أكثر من أى دين آخر – العطف والتأييد ، من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى. فإنه – والحق يقال – يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم ، فهو ببساطته المتناهية – كما يذهب إليه المعتزلة – وباشتماله على روح التصوف – كما يذهب إليه الصوفية – يهدى علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم .

كما أنه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية .

ويرقى بروح ذلك التاجر الإنجليزى ، رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب ، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ، ويسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر ، بل هو يسحر لب الطبيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معاً ، وفى وسع حر الفكر – وهو ليس ملحداً حتماً – أن يعتبر الوحى الإسلامى عملاً من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها «الإلهام» وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيغها العقل[1] » .

ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد . لقد رسخت هذه

---

(١) من كتاب «الحج إلى بيت الله الحرام»

الفكرة فى نفسه من أول وهلة ، واستمرت معه إلى نهاية حياته :

لقد وقر فى ذهنه ، أن الإسلام دين عام خالد .

ولكنه لأجل أن يتبين - فى وضوح - الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية ، ولأجل أن يصل إلى الحد الأسمى ، فيما يتعلق بالإخلاص لضميره الدينى ، أخذ يوازن موازنة قيمة بين الإسلام والمسيحية فرأى :

(١) فيما يتعلق بالإله :

«الدين الإسلامى لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريًا ، أو ما إلى ذلك من الأشكال .

إن «يا هو» ، الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى فهم يجعلونه فى مظاهر متهالكة ، وكذلك تراه فى متحف «الفاتيكان» وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما «الله» فى دين الإسلام الذى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته إزميله ، ذلك لأن «الله» لم يخلق الخلق على صورته ، سبحانه وتعالى ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد[1] » .

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

(ب) فيما يتعلق بالصلاة والنظافة :

إن الحركات والإشارات فى الصلاة الإسلامية هى ذات بساطة ولطافة ونبالة ، لم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها .

كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشخوص إلى السماء ، واستنزال الدموع التى تذكرنا بالدموع الجليسرينية التى يصطنعها ممثلو «السينما» فى عصرنا الحاضر . حقًّا ، إن الصورة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة .

والأقوال والحركات التى فى الصلاة الإسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء ، والاطمئنان ، وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع ، والتظاهر بذلك مما هو غريب فى العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور ، وهو الغنى الحميد .

ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله فى السماء عند دعوته ، وهذه الحال تحمل فى طياتها إلحاداً ، إذ تجعل السماء منفى الإله ، وتنفى بذلك عنه صفة الوجود فى كل مكان . وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية ، فهى مفروضة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد ، وكم من شيخ كبير ، وبدين سمين ، يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة ، مما لا يستطيعه المسيحى فى مثل هذه السن ، أو فى مثل هذا الحال ما لم يكن قد روض على ذلك من قبل ، أضف

إلى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة ، ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة ، والنظافة من الإيمان[1] » .

(جـ) فى التسامح :

يقول القس «ميشون» فى كتابه «سياحة دينية فى الشرق» :

«إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة ، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم» .

(د) فى العلم :

رفع النبى محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب[2] ، وجعله من أول واجبات المسلم ، وفى ذلك يقول ﷺ :

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

(٢) يقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين : «نهض الإسلام بالعقول من وهدة الخمول : وأذن لها أن تبحث فى كل علم ، وتذهب فى البحث كل مذهب . فوجدت الأمم من العرب وغير العرب فى هذه السماحة ما أثار نشاطهم للبحث فى كل ناحية من نواحى العلم ؛ فلم يلبثوا أن جمعوا القرآن الكريم فى مصحف ، ودونوا الحديث النبوى بعد أن كان محفوظاً فى الصدور ، وكتبوا فى تفسير القرآن ، وشرح السنة النبوية ، وحققوا النظر فى تقرير أصول الدين وأصول الفقه ، وحرروا وجوه استنباط الأحكام العملية . ووضعوا إزاءها العلوم العربية من النحو ، والصرف ، والبيان ، وفقه اللغة ، ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها ، فأصبحت بلاد الإسلام — ولا سيما عواصم الممالك ، كبغداد ، وقرطبة ، ومصر ، ودمشق ، وتونس — موارد العلوم الإسلامية والأدبية والكونية . من هذه الموارد استحدثت الأمم الأوربية معارفها وفنونها ، وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوربا المنصفين . قال الأستاذ بريفولت الإنجليزى ، فى كتابه «تكوين الإنسانية» : فى القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام ، =

«اطلبوا العلم ولو بالصين».

و: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء، بدم الشهداء».

و: «شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء».

و: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[1].

وقد نظر المسيو «كازانوفا»، أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليات، وكيف يقولها أحد أصحاب الديانات، فعلق على ذلك بقوله:

= وقال: إن رئيس دير كلوني يأسف على أنه رأى فى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وإنجلترا، يأتون أفواجاً أفواجاً، إلى المراكز العلمية العربية. وقال: فالعلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر.

«ولم يكن فضل الإسلام على أوربا من ناحية العلم فقط، بل كان له الفضل فى نهضتها المدنية، قال الأستاذ بريفوت فى الكتاب المذكور: «لم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوربا الجديدة، بل إسبانيا (الأندلس) لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة فى حين العالم العربى، بغداد والقاهرة، وقرطبة، وطليطلة كان مركز الحضارة والنشاط العقلى، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء إنسانى جديد».

وخلاصة الفصل: أن دعوة خاتم النبيين، ﷺ، قد أتت العالم بضروب خطيرة من الإصلاح لم تأته بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها فما يوجد فى العالم من هداية صادقة، أو علوم نافعة، أو مدنية فاضلة، فإنما يوجد الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم.

«فليرفع الفتى المسلم رأسه معتزًّا بدين رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم، وهداها سبل السعادة الباقية، والمدنية المهذبة: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين)».

(١) الجزء الأول من كتاب الإحياء للغزالى.

«يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثيل آرائنا وهضم أفكارنا» . . .

يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الإسلام هو القائل : بأن فضل العلم خير من فضل العبادة !

فأى رئيس دينى كبير ، أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المتين ؟

هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة :

نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم ، ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار ؟

كما أنه سوف يقال : إن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كشفت أمثال «لوثير» و«كالفين» ، وعاد الفضل فيها إلى رجل عربى من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام[1] .

(هـ) فى الفروسية :

وينظر المسيحيون إلى «سان لويس» ، وكأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة . غير أن الوثائق التاريخية تثبت فى وضوح وسهولة – أن خصمه صلاح الدين الأيوبى كان أرفع منه قدراً فى الحضارة وفى الشجاعة ، وفى معاملة الخصوم .

والفروسية ونبالة قصدها ، لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان ،

(١) من أشعة خاصة بنور الإسلام .

والرومان ، ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً .

وعلى أثره دخلت أوربا ووصلت إلينا نحن الغربيين ، ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها إلى العرب .

وقد ذكر العالم المسيحى المتدين «بارتلمى سان هيلار» فى سياق حديثه عن القرآن :

«إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها فى القرون الوسطى ، فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ثم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً» .

ويخطئ من يظن أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها برغم ما فيها من المزايا والفضائل .

(و) فى العبقريات العلمية :

ثم إنهم يفخرون بالعالم «باستور» الفرنسى ، ويجعلونه درة فى تاج الحضارات الحديثة ، ولكن فاتهم أن «جابر» و «الرازى» ، لا يقلان عنه فى مرتبة العلماء والمفكرين ، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم «الكيمياء» بفضل ماكشفاه من طرق التقطير ، ومن الكحول ، ومن «حمض النتريك» و «حمض الكبريتيك»[1] .

---

(١) من أشعة خاصة بنور الإسلام .

إسلامه :

واستمر صاحبنا فى الموازنة والمقارنة ، والتأمل والتفكير ، وأطال النقاش ، ثم أراد الله له أن يسلم .

وأسلم (إتيين دينيه) ، واختار اسم «ناصر الدين» . وإن هذا الاختيار لهو الذى يحدد اتجاهه بعد ذلك خير تحديد . . ناصر الدين : إنه حقًّا خصص حياته لنصرة الدين الإسلامى ، ورأى أن نصرته إنما تكون عن طريقين :

(ا) نصرته سياسيًّا .

(ب) نصرته علميًّا .

فإن عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الإسلام ، ويهاجمانه فى عرينه ، وهما :

رجال السياسة الاستعماريون ، ورجال الدين المتعصبون .

ولابد – لتكون نصرة الإسلام كاملة – من أن يتجه الدفاع نحو الهدفين ، وتطلع ناصر الدين نحو الغاية التى يريد أن يسعى إليها ، فهاله الأمر ، وكتب معبراً عن الواقع يقول :

«إن أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل ، ويحاربوننا بالمفتريات . . وإذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم علينا ، كانت فيها صفحة هى أسود الصفحات فى سجل التعصب ، يشترك فى تسويدها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم ، سواء منهم العلماء ، والرواد ،

والقساوسة ، ورجال الحكومات ، والكتاب ، أمثال بيرون وبلجراف ، وجلادستون ، وبرجليوس ، وقسيس كانتربرى ، والأب لامنس ، والكاتب لوى برتران سرفييه . . وغيرهم[1] » .

الانتصار للإسلام سياسيًّا :

أما ، والأمر كذلك ، فلابد من التشمير عن ساعد الجد ، والنهوض حقيقة فى وجه عوامل هدم الإسلام هذه ، ولكن كيف السبيل ؟

أما من جهة السياسة ، فإن ناصر الدين ليس من الساسة المحترفين ، ولذلك كانت مهمته فى هذه الناحية التحدث إلى كل من يجد فيه روح الإنصاف من الغربيين ، ذوى النفوذ ، والعمل على إذاعة كل ما يمكنه إذاعته من آراء المنصفين منهم ، وتبنى قضية الشرق المظلوم .

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلاً ما يلى :

« ونشر أخيراً المسيو « أوجين يونج » وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقاً كتاباً عنوانه : « استعباد الإسلام – الحرب الصليبية الجديدة » . وهذا الكاتب معروف بأنه من الكاثوليك المتمسكين بدينهم ، ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسى من خيرة الفرنسيين ، وقد أنكر فى كتابه هذا ، فى كبير شجاعة وصراحة تلك الحروب الصليبية الجديدة التى يقوم بها اليوم « الفاتيكان » ، ذلك المركز الرئيسى المقدس ، حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية ، وقد أظهر أنهم يقومون

(١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام .

بذلك دون أن يفت فى عضدهم ملل أو كلل ، أو أن ينال منهم أى تهاون أو كسل ، وإنما يقومون به من وراء ستار المداهنة ، وفى ثوب من الرياء يشف عما تحته .

ومما جاء فى كتاب المسيو «يونج» قوله :

«إننا نهيئ من اليوم مقدمات حرب دينية ، شديدة الفزع والهول» .

ثم أظهر أن مصالح فرنسا الحيوية إنما هى فى التفاهم والاتفاق الودى مع الإسلام ، وإنا لنرجو أن يكون لكلام هذا الفرنسى الكبير صدى بعيد وأثر محمود فى مصلحة فرنسا ، والإسلام على السواء»[1] .

ومن ناحية أخرى ، أخذ ينشر ما يصحح فكرة الأوربيين عن الشعوب الإسلامية ، ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش ، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة ، ويبين أن ماضيها المجيد خير نبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ، فيزيل ما غشى عليها من ظلمة .

ويلفت نظر الفرنسيين ، فى قوة ، إلى ما أداه لهم المسلمون من أياد جليلة فى ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا .

ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا الميدان : أنه حينما ألف كتابه فى السيرة النبوية ، أهداه «لأرواح الجنود الإسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى ، وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين» .

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

الانتصار للإسلام علميًا :

ومع ذلك فإن ميدانه الفسيح إنما كان الدفاع عن الإسلام ، باعتباره ديناً سماوياً ، لقد استمات فى الدفاع عن عقيدته التى يؤمن بها فى يقين حار مطمئن .

ومما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الإسلام والمسيحية فى كثير من الأصول ، وفى كثير من الفروع .

لقد درس الإسلام فى عمق ، ودرس المسيحية فى عمق ، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يفتر ، وتزييفهم بالباطل لكل ميزة للإسلام لا ينقطع . فدافع واشتد فى دفاعه ، وهاجم – وكان لابد من الهجوم – واشتد فى هجومه ، وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة فى رجال الكنيسة . . ولكنه كان يعلن دائماً – كما هو الشأن فى كل مسلم – احترامه للمسيح : لأنه رسول الله ، واحترامه للمسيحية الصحيحة التى يتحدث عنها القرآن ، لا تلك التى ابتدعها رجال من بنى البشر .

كان يعلن دائماً أن دين الله واحد ، وأن الإسلام أتى مصدقاً لما سبقه مصححاً لما ناله من تحريف ، مهيمناً عليه ، وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

فالقرآن فى العصر الحاضر ، هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لم ينله – ولن يناله – تحريف أو تبديل .

يقول الأستاذ راشد رستم – بحق – عن ناصر الدين :

(١) سورة الحجر آية ٩ .

« وإنك لتجد الكاتب واسع الاطلاع . لذلك هو صحيح الحجة ، ناهض البرهان . هو شديد الهجوم ، شديد الدفاع : ذلك لأنه غيور على دينه الذى لم يتخذه إلا بعد أن بحث وفكر .

وهكذا كان فى عقيدته مكيناً ، وفى إسلامه كاملا »[1] .

كان يصحح الأخطاء ، ويرد الهجوم ، ويهاجم ، ويوازن بين الإسلام والمسيحية ، وكان قبل ذلك وبعد ذلك ، يبين الإسلام ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته إلى ذلك المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب فضلا عن الأحاديث الشفهية .

التعريف ببعض كتبه :

ومن كتبه فى ذلك :

١ – الرسالة القيمة « أشعة خاصة بنور الإسلام » وقد ترجمها ترجمة أدبية ممتازة الأستاذ راشد رستم ، وهى رد على الفكرة التى يذيعها القساوسة القائلة :

إن الإسلام لم يأت بجديد ، وقد انتفعنا بها انتفاعا عظيماً ، وكانت لنا خير عون فى عملنا الحالى .

٢ – وآخر ما ألفه هو كتاب « الحج إلى بيت الله الحرام » وقد ترجمت خاتمته ونشرت فى مجلة جمعية الشبان المسلمين ، بقلم الأستاذ : م . توفيق أحمد ، وقد نقلنا بعضاً من نصوصها فى ثنايا الكتاب الحاضر .

٣ – « الشرق كما يراه الغرب » وقد ترجمه الأستاذ عمر فاخورى ، ونشر

---

(١) عن أشعة خاصة بنور الإسلام .

بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء غربية فى مسائل شرقية » وقد استفدنا منه كثيراً فى البحث الراهن .

٤ – ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول عليه السلام – وهو السيرة النبوية – فى مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الجزائرى الحميم ، السيد الفاضل سليمان بن إبراهيم ، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الإسلامية فى بلاد الجزائر ومعالم الدين فيها .

وطبعه طبعاً غاية فى الإتقان والعناية ، وقدمه لأرواح الجنود الإسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى ، وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين[١] ، ونشره كذلك باللغة الإنجليزية ، بنفس الحجم الكبير ، والإتقان التام .

والكتاب فى طبعتيه : قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية ، غاية فى الدقة والإبداع ، وهى اللوحات التى قام بعملها خاصة السيد « محمد راسم » الجزائرى ، أشهر رجال الزخرفة العربية ببلاد الجزائر[٢] ، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية ، وإنها لخدمة جليلة للإسلام والمسلمين ، ونبى الإسلام مشكورة مذكورة [٣] .

(١) ولكن مما يؤسف له ، أن فرنسا جازت المسلمين على ذلك جزاء سنمار .

(٢) وقد أشار إلى ذلك المسيو آلازار بجامعة الجزائر ومدير متحف الجزائر ، وذلك فى المحاضرة التى ألقاها فى النادى الفرنسى بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٩٢٩ ، وهى المحاضرة الخاصة بالنهضة الفنية الجزائرية .

(٣) أشعة خاصة بنور الإسلام .

وفاته :

استمر ناصر الدين طيلة حياته يناضل عن الإسلام كدين ، ويناضل عن المسلمين كشعوب ، ويضع روحه ، وشعوره ، ووجدانه فى هذا الدفاع المجيد حتى ليكاد الإخلاص يتجسد خلال ما يسطر من عبارات .

وفى سنة ١٩٢٨ م قام السيد ناصر الدين بأداء فريضة الحج ، ووضع كتابه : « الحج إلى بيت الله الحرام » .

وفى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، توفى بباريس ، وصلى عليه بمسجدها الكبير بحضور كبار الشخصيات الإسلامية وغيرها ، وزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الفرنسية ، ثم نقل جثمانه إلى بلاد الجزائر حيث دفن فى المقبرة التى بناها لنفسه ببلدة « بوسعادة » تنفيذاً لوصيته [1] .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا .

---

(١) دوزى : مسلمو الأندلس ، ج ١ ، ص ١٨ .